حوليات آداب عين شمس المجلد ٥٠ (عدد يناير – مارس ٢٠٢٢)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)

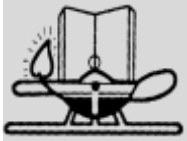

تداولية الأفعال الكلامية المباشرة في آيات التوحيد في القرآن المجيد

سارة كاظم عبد الرضا*
علي خليف حسين**

جامعة بغداد / كلية الآداب / قسم اللغة العربية
Woh82@gmail.com

المستخلص

هدفنا الأساس من هذا البحث عرض وتحليل المسائل التطبيقية في الخطاب القرآني لمنهج عُدَّ النواة الأولى في اللسانيات التداولية، ومحورًا ثابتًا دارت عليه أغلب نظرياتها في العصر الراهن؛ كونها تمثل العمود الفقري لعملية التواصل، فباختصار لا تتم العملية التواصلية إلّا من طريق أفعال كلامية معينة يطلقها المتكلم؛ كي تنشأ هذه العملية الدقيقة بالامتثال لتأدية المراد من اطلاق هذه الأفعال وللكشف عن اعماقها في التراث اللغوي العربي الخالد واستخلاصها باستثمار معطياتها عند علمائنا العرب لا سيما نحاتنا الأجلاء.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠٢٢.

تداولي الأفعال الكلامية المباشرة في آيات التوحيد [١] في القرآن المجيد

تبدأ مرحلة التأسيس لهذه النظرية على يد أوستين لتجسد موقفًا مضادًا للاتجاه السائد بين فلاسفة المنطق الوضعي الذين دأبوا على تحليل معنى الجملة مجردة من سياق خطابها اللغوي المؤسساتي، زيادة على ما وصفه أوستين بالاستحواذ أو التسلط المنطقي القائل بأنّ الجملة الخبرية هي الجملة المعيارية، وما عداها من أنماط مجرد أشكال متفرعة عنها. إذ يرى أنّ هناك جملًا تشبه المقولات الخبرية أو التقريرية لكن لم يكن القصد منها الإخبار أو تسجيل الحقائق، ومن بينها صنف مهم أسمّاه (المقولات الإنجازية) إذ يعدّ النطق بالكلمات انجازًا لفعلٍ أو عملٍ ما[٢]، إذن فالوظيفة الأساس للغة غير كامنة أساسًا في إيصال المعلومات، والتعبير عن كوامن النفس فقط بقدر ما هي مؤسسة تتكفل بتحويل الأقوال إلى أفعال. فقد تستعمل اللغة لإنجاز وعد أو تصريح أو زواج، أو طلاق وكثير من الأفعال التي لا يمكن أن تتحقق إلّا من طريق انجاز الفعل، كأفعال الزواج والطلاق التي لا يمكن أن تتحقق إلّا بالإيجاب والقبول من الطرفين؛ لأنّها وصف لحقيقة لا إخبار، وتتمثل جهود أوستين في هذا المجال بما يأتي [٣] :

١. **التمييز بين المنطوقات التقريرية والمنطوقات الأدائية**: ميز أوستين بين نوعين من افعال الكلام: الأفعال الإنجازية (الأدائية)، والأفعال التقريرية (الإخبارية)، فالأولى هي التي تنجز أو تؤدي أفعالًا في ظروف ملائمة ولا توصف بالصدق أو الكذب، والتلفظ بها يساوي تحقق فعل في الواقع، وتكون موفقة أو غير موفقة بحسب تحقق شروط الملاءمة، فإذا لم تتحقق كان ذلك إيذانًا بإخفاق الأداء. أمّا الثانية، فهي تلك الأفعال التي تصف حالًا معينًا في العالم الخارجي ومن خصائها أنّها تصف حالة الأشياء في الكون التي تسبق التلفظ إذ لا يشترط أن يرتهن وجودها بالتلفظ [٤].

٢. **شروط المنطوقات الأدائية**: وضع أوستين شروطًا لتحقق الأقوال الإنجازية هي: أن يكون هناك طقس عرفي مقبول، له تأثيره العرفي أيضًا ومشتمل على التلفظ بكلمات محددة من أشخاص محددين في ظروف محددة. وأن يتمّ تنفيذ الطقس العرفي على نحوٍ صحيح من جميع المشاركين فيه، على أن ينفذ الطقس كاملًا. واشترط كذلك الصدق، إذ يجب أن تتوافر للمشاركين المشاعر والأفكار والنوايا الأساس التي يقتضيها الطقس العرفي، زيادة على دوام واستمرار تمسكهم بهذا السلوك. ووضع معيارًا نحويًا لتحديد المقصودات الأدائية ويتمثل هذا المعيار في أنّ الفعل في هذه المنطوقات له خصائصه الآتية: (صيغة المتكلم المفرد، زمن المضارع (الحال)، الصيغة الإخبارية، وحالة المبني للمعلوم). وكذلك أن يكون للمشتركين القصد والنية في أن يتبعوا هم انفسهم ذلك السلوك، وأكثر من ذلك [٥].

٣. **تقسيم المنطوقات الأدائية إلى صريحة وأولية**: المعيار التركيبي الأول الذي وضعه أوستين وشرح محرزاته، من أجل أن يفرق بين الأدائي والتقريري، فمع غلبة هذه الصورة القياسية للفعل الأدائي إلّا أنّ بعض الصور الأخرى قد يرد عليها المنطوق الأدائي، كاشتمال الجملة على فعل بصيغة المبني للمجهول، وهذا ما دعاه للشك في صحة هذه المعايير [٦]، فهناك جمل لا تشتمل على هذا المعيار وهي إنجازية، وجمل تشتمل عليه وهي وصفية تقريرية [٧]. فمن النوع الأول جملة (سأكون هناك) لا تشتمل على فعل من الصيغة في المعيار السابق، ومع ذلك قد تكون أدائية عندما يراد منها عين ما يراد من الجملة الأدائية (اعدك بأنّي سأكون هناك)، أمّا النوع الثاني كقولنا: (يحُال لمعالي الوزير)، وهي جملة أدائية فعلًا [٨]، ممّا دفع تلميذه سيرل إلى تطوير النظرية من بعده.

٤. **ميز بين جوانب الفعل الكلامي الثلاثي**: يؤكد أوستين أنّنا حينما نتلفظ بقول ما نقوم بثلاث أفعال تؤلف فعلًا كلاميًا واحدًا، وتؤدى في آنٍ واحد إذ لا يمكن الفصل بينها لارتباطها الشديد مع بعضها وهي[٩]:

أ- **فعل التلفظ**: ويقصد به الأصوات التي يصدرها المتكلم والتي تمثل قولًا ذا معنى منظمة في تركيب نحوي سليم، يكون هذا المعنى أصليًّا بحسب قصد المتكلم، ويرى أوستين أنّه فعل معقد مركب من ثلاثة عناصر تركيبية يمثل تنفيذ كلّ عنصر منها فعلًا بذاته (الفعل الصوتي، والفعل التأليفي، والفعل الإحالي) [١٠].

ب- **الفعل الإنجازي أو فعل قوة التلفظ أو الفعل المتضمن في القول**: حينما يتلفظ المتكلم بقولٍ ما يكون قد أنجز معنًى قصديًّا، أو تأثيرًا مقصودًا، وهو ما نعته بقوة الفعل إذ اشترط لتحقق هذا المعنى الإنجازي توافر السياق العرفي المؤسساتي لغة ومحيطًا واشخاصًا.

ت- **فعل أثر التلفظ**: ويتمثل في وجوب احداث تأثيرات ونتائج في المتخاطبين كحثهم على القيام بفعل أو حملهم على الخوف أو الضحك، أو الحزن[١١] أو غيرها من ردود الفعل التي تتولد من فهم رسالة المتكلم وإدراك معناها، أي أنّ الكلمات التي ينتجها المتكلم في بنية نحوية منتظمة محملة بمقاصد معينة في سياق محدد تعمل على تبليغ رسالة، وتُحْدِث أثرًا عند المتلقي[١٢]. من ذلك يتبين لنا أنّ وظيفة اللغة عند أوستين استعمال وانجاز .

٥. **تصنيف الأفعال الكلامية** [١٣] بحسب قوة إنجازها إلى :

١. التقريرات أو الإخباريات: تتمثل في الحكم، نحو (التبرئة، والإدانة، الفهم، إصدار أمر، الإحصاء التوقع، التقويم، التصنيف، التشخيص، الوصف، التحليل) .

٢. التنفيذيات (القرارات): وتقضي بمتابعة أعمال مثل (الطرد، العزل، التسمية، الاتهام، التوصية، الاستقالة، التوسل، الفتح، أو الغلق) إذ يبدو هذا القسم فسيحًا جدًا فهي أفعال تقتضي ممارسات معبرة عن اتخاذ القرارات ويتأسس التمييز بين الأعمال المندرجة فيه ضمن الصنف الأول؛ كون التنفيذيات أعمال تنفيذ أحكام ولكنها ليست في حد ذاتها حكميات .

٣. الوعديات (الالتزاميات): تلزم المتكلم بالقيام بالتصرف بطريقةٍ ما كـ(الوعد، والموافقة، والعزم، والنية، والقسم، والإذن والتفضيل) فالأمر متعلق بأعمال من طبيعة واحدة التي تحمل على القول الإنشائي الأوليّ (سأفعل)، إذ يتعهد المتكلم نفسه بالقيام بالعمل ويكون للقصد والنية أثره في هذا النوع .

٤. السلوكيات (المعبِّرات): أعمال تتفاعل مع أفعال الغير نحو (الاعتذار، والشكر، والتهنئة، والرأفة، والنقد، والتصفيق، والترحيب، والكره، والتحريض) ومغزاها التعبير عن الحالة النفسية التي يحددها صدق النية المتعلق بالموقف الذي يحدده محتواه الخبري .

٥. العرْضيات: هي أفعال تختص بـ(العرْض، كالتأكيد، والنفي، والوصف، والإصلاح، والذكر، والمحاجة، والقول، والتأويل، والشهادة، والنقل، والتوضيح، والتفسير، والتدليل، والإحالة) إذ توضح مناسبة المقولات للخطاب الجاري فهي تعبر عن الإيضاح وبيان وجهات النظر.

أنماط الفعل الكلامي المباشر في آيات التوحيد في القرآن المجيد

للسلطة أثرها في إنتاج الخطاب وتأويله بل يمكن أنّ يعدّ الخطاب نفسه سلطة[١٤] ويتجلى أثرها بوصفها محددًا رئيسًا في ترجيح استراتيجيات خطابية معينة من دون أخرى، وسنحاول دراسة وتحليل نماذج من الأفعال الكلامية الواردة في الخطاب القرآني على وفق المقاربة التداولية بصيغ متنوعة كـ:

١. **الأفعال الكلامية الدالة على التقرير أو الإخبار**، كقوله تعالى[١٥]:﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ التقرير هو القوة الإنجازية العامة للأفعال الكلامية في هذه المتوالية إذ تتمّ إنجازيتها من طريق خطوتين، **الأولى** يتحقق فيها الإنجاز من طريق نطق الكلام وإدائه، أمّا **الثانية** فمن طريق الإخبار أو الوصف. فهما غرضان إنجازيان شأنهما شأن أيّ غرض آخر كالرفض والقبول [١٦] وهذا ما تكشف عنه البنية التركيبية لقوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ ﴾،و ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ ﴾ إذ تستمر سلسلة الأفعال الخطابية في سياق قرآني منظم ومحكم، فـ(قالت) فعل كلامي (فعل التلفظ) تقريري تكمن قوته الإنجازية في ادعاء اليهود بأنّ عزير ابن الله ؛ لأنّه لمّا خرب بخت نصر بيت المقدس، وأحرق التوراة حزنوا على ذهابه فأملاها عليهم عزير عن ظهر قلبه فتعلموها وفي أنفسهم منها شيء مخافة أن يكون قد زاد فيها أو نقص منها شيئا، فبينما هم كذلك إذ وقعوا على خوابي مدفونة في قرية فيها التوراة فعارضوا بها ما كتبوا من عزير، فلم يزد شيئًا ولم ينقص حرفًا فقالوا عند ذلك ما علم عزير هذا إلّا وهو ابن الله، والنصارى بأنّ المسيح ابن الله؛ لأنّ المسيح كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله تعالى، فقالوا لم يكن يفعل هذا إلّا وهو ابن الله [١٧]. أمّا قوله: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ ﴾ فـ(يضاهئون) فيه من حذف مضاف تقديره :(يضاهي قولهم قول)، ثم حذف المضاف وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه، فانقلب مرفوعًا وهو فعل كلامي تقريري غايته الإنجازية أنّ قول اليهود والنصارى يضاهي قول قدمائهم أي أنّه كفر قديم فيهم غير مستحدث، أو يضاهي قول المشركين بأنّ الملائكة بنات الله وقيل: الضمير (المرجع المحال إليه) للنصارى، أي يضاهي قولهم: المسيح ابن الله، قول اليهود: عزير ابن الله؛ لأنّهم أقدم منهم [١٨]. وتستمر متوالية الأفعال التقريرية في قوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ فـ(قاتلهم) فعل كلامي تقريري تتمثل قوته الإنجازية في التعجب من قولهم هذا وشناعته من طريق صيغة الفعل (قاتل) التركيبية التي تفاعلت مع المعنى في التعبير القرآني؛ لأن نسبة أصل الفعل إلى الفاعل حقيقة بلا اقتضاء مشاركة ومعناه: لعنهم الله. قال ابن الأنباري (٥٧٧هـ):" المقاتلة أصلها من القتل، فإذا أخبر عن الله بها كانت بمعنى اللعنة؛ لأنّ من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك"[١٩]، و(يؤفكون) فعل كلامي تقريري أيضًا قوته الإنجازية مكملة لما قبله في التعجيب للنبي (صلى الله عليه وسلم) من

تركهم الحق وإتيانهم الباطل؛ لأنّ معنى الإفك هو الصرف، يقال: أفك الرجل عن الخير أي: قلب وصرف فكيف يصرفون عن الحق بعد وضوح الدليل حتى يجعلوا لله الولد؟ (٢٠).

أمّا قوله تبارك وتعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فـ(اتخذوا) فعل كلامي تقريري تكمن قوته في اتخاذهم إياهم كالأرباب يطيعوهم في معصية الله فلم يعبدوهم، ولكن أطاعوهم فكانت كالربوبية واتخاذهم عيسى بن مريم ربًا. ثم يمضي السياق القرآني خطوة أخرى حاملة بين طياتها الرد على هذه المعصية بقوله: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ ﴾ بفعل تقريري تتمثل قوة إنجازه بالنفي في(وما أمروا) وبناؤه للمجهول مشعر بمطابقته للمقصود منه وكذا بتأكيد قصر العبادة بـ(إلّا) وتخصيصها لله وحدة تنزيهًا له عن شركهم؛ لأنّ تخصيص العبادة لا يتحقق إلّا بتخصيص الطاعة بقوله:﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ ﴾، ويستمر السياق بالتقرير الحاسم في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ من طريق النفي المتمثل بالأداة (لا) النافية للجنس (٢١)، وتتمثل قوة الفعل في "قصد التنزيه والتبرّئ ممّا افتروا على الله؛ لذلك سميَّ إشراكاً " (٢٢)؛ لأنّ قوة بيان الخطاب القرآني واضحة الجهة والكيفية التي يتعين بها فهم آياته ومقاصدها. فأسلوب القرآن متكيف بحسب مخاطبيه وصدق القضية المعبر عنها (التوحيد)، وكذا بحسب السياق الذي ترد فيه آياته.

أمّا فيما يخص بناء الفعلين (يؤفكون، أمروا) للمجهول الذي انمازا به هو " في الواقع معلوم بالسياق؛ لأنّه المنجز للعمل القولي المتمتع بالسلطة الكافية والضرورية التي تخول له فعل ما يفعله في خطابه بمجرد التصريح به"(٢٣) لذلك اكتفى الخطاب القرآني باستعمالها، ما يدل على سطوة سلطة الباري عزّ وجلّ، فبالرغم من وضوح الخطاب في الدلالة على القصد فأنّه منطوي على سلطته دالًا عليها وقد" يكون الاكتفاء بما يدركه المرسل عنها هو السبب في عدم الإشارة إلى ذاته بأداة لغوية في الخطاب، فذات المرسل تصبح هي محور الخطاب؛ لذلك يكتفي بإنابة الخطاب عنها من خلال باستعمال آلية الصرف ممّا يوحي للمرسل إليه أنّ الإشارة إليها في الخطاب ليس ضروريًا فالخطاب كاف في حد ذاته لتمثيل هذه السلطة، بل والإشارة إلى عدم أحقية المرسل إليه في السؤال عنها وعن شرعيتها بقدر ما يكمن دوره في تقبل الخطاب والانصياع لمقتضاه" (٢٤).

٢. **الأفعال الكلامية الدالة على الإلزام** : ترتبط القواعد التداولية بوضعية المتكلم والمستمع؛ إذ لا بدّ من توافر شرط السلطة والاستعلاء فيما يخص المتكلم لتحقق غرضه من الفعل الإنجازي الأمري، وإلّا فقد يولد الفعل أغراضًا إنجازية أخرى بحسب قرائن الأحوال والمقام، زيادة على ذلك ينبغي توافر شرط قدرة المتكلم على إصدار الأمر وإرادته فعل ذلك، وبحسب تصنيف أوستين وسيرل وليفنسون وبراون، فإنّ الأمر جزء من الأفعال التوجيهية يهدف إلى توجيه المتلقي نحو سلوك معين والتأثير فيه(٢٥)؛ لأنّ قصد المتكلم الذي تعبر عنه هذه الأفعال يحدد الطريقة التي يتحدث بها، ويتغير تعبيره عنه قوةً أو ضعفًا بتغيير الموقف الكلامي (٢٦).

لذا كانت السلطة معيارًا في تصنيف الأفعال اللغوية الإنجازية " إذ نتج عنها عند أوستين صنف الأفعال الإنجازية الثاني المتمثل بالممارسات التشريعية (التنفيذيات، أو القرارات) التي تتعلق بممارسة السلطة والقانون والنفوذ، وأمثلة ذلك التعيين في المناصب والانتخابات، وإصدار الأوامر التفسيرية في المذكرات، وإعطاء التوجيهات التنفيذية القريبة من النصح والتحذير وغيرها"(٢٧) . وسنحاول أن نبيّن ذلك في قوله تعالى (٢٨):﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ يعدّ قوله تعالى فرعًا من فروع توحيد الأفعال وهو توحيد الخالقية لله وحده، فالفعل (خلق) يعني في " أصله: التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشّيء من غير أصل ولا احتذاء" (٢٩)، وله معنيان هما: تقدير الشيء وملامسته (٣٠).

والتحليل التركيبي للآية يبدأ باسم الإشارة (ذلكم) مبتدأ مسند إلى أخبار مترادفة (الله ربكم لا إله إلّا هو) والوظيفية النحوية التي يؤديها التركيب على هيئته هذه يفيد مضمونه المستفاد منه فلمّا ثبت أنّه سبحانه لا كفء له بما ذكر من صفاته وأفعاله أشار إلى ذلك كلّه بمبتدأ (ذلكم) بعده أخبار؛ " للتّنبيه على أنّ المشار إليه حقيق بالأخبار والأوصاف الّتي ترد بعد اسم الإشارة "(٣١)، وساق قوله: (خالق كل شيء) الذي هو مطلع ما بعده مساق التعليل دليلاً على ذلك ، فلمّا أقام الدليل سَبَبَ عنه الأمر بالعبادة بالعنصر الحضوري المتمثل في فعل الأمر:(اعبدوه) أي وحدوه؛ لأنّه الغني المطلق، ومن كان له الغنى المطلق لا يحسن أن يقبل مشركاً فبمجرد نطق الفعل تتحقق دلالته التداولية في الواقع (٣٢). وفعل التوجيه (اعبدوه) الذي جاء بصيغة الأمر التي تستدعي إلزام مقتضى الفعل على جهة الاستعلاء الواجب الطاعة على المخلوقات أجمع؛ لأنّه الغاية الوحيدة من خلقها استنادًا لقوله تعالى(٣٣):﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ

إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾، إذ نجد قوة الفعل الإنجازية متحققة فيه وقد استعمل القرآن الخطاب الصريح في انجاز الفعل من طريق صيغة الأمر(اعبدوه) لإفادة الإلزام والوجوب.

٣. **الأفعال الكلامية الدالة على المنع والحظر**، كقوله تعالى[٣٤]:﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ (لا) من الأدوات المختصة دلاليًا والتلفظ بها يعادل فعل النهي وتؤدي هذه الأداة دلالة الفعل اللغوي مباشرة لنيابتها عنه وهو القصد المطابق لدلالة الخطاب [٣٥]. والخطاب موجه للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) والمراد غيره أي كفار قريش فهو "نهي عمّا هم بسبيله، فهم المراد وإن عري اللفظ من ذكرهم"[٣٦] وإن كان واجباً على الكلّ إلّا أنّه تعالى خاطبه به خصوصاً لأجل التعليم، ويجوز أن يكون المعنى: لا تعتمد غير الله ولا تتخذ غيره وكيلاً في أمورك، فإن وثق بغير الله فكأنّه لم يكمل طريقه في التوحيد[٣٧].

نلحظ ممّا قدّمنا أنّ الفعل الكلامي (لا تدع) بصيغته الدالة على النهي والمنع هو المكون الحامل للمعلومة الأكثر أهمية والأكثر بروزًا في الآية والتي تقوم أساسًا على فكرة البؤرة التي تستند على الفعل الحامل للمعلومة وهذه وظيفة تداولية داخلة ضمن نطاق الحمل [٣٨] ومبعث تداوليتها راجع إلى تبعيتها لقصد الخطاب وإرادته سبحانه، فترتيب الآية مرتبط بشروط مقامية تعود إلى قصدها ما يدل على أن للبنية التركيبة ارتباطًا وثيقًا بوظيفة التواصل بين المتكلم والمستمع لا سيما مع توافر شروط نجاح الفعل الإنجازي وهي تحقق الإفادة والقصد ومطابقة الواقع بغية إنجازه .

ولمّا قرع الأسماع بهذا النهي المحتم لتوحيده، أتبعه الإخبار بالأمر بذلك جمعاً بين صريحي الأمر والنهي تصريحاً بعد التنزيه له عن الشريك بالإفراد له في العبادة في أسلوب الخبر إعلاماً بعظم المقام فقال تعالى: (وقضى) [٣٩] أمر في صورة قضاء حتمي حتمية القضاء [٤٠]، فالفعل الكلامي قد صرح بقوته الإنجازية تصريحًا جازمًا واضحًا، إذ وجه سبحانه آمرًا وملزمًا فهو أمر حتماً مقطوعاً به ماضياً لا يحتمل النزاع وقد فسر هذا الأمر بما أتبعه من قوله :(ألّا تعبدوا) أي أنت وجميع أهل دعوتك[٤١]، ولفظة (قضى) تخلع على الأمر معنى التوكيد إلى جانب القصر الذي افاده النفي والاستثناء (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) فتبدو في جو التعبير كلّه ظلال التوكيد والتشديد[٤٢] في بناء الخطاب الناتج من تضافر سلطة الخالق مع سلطة عناصر السياق التي أسهمت في إنتاجه .

٤. **الأفعال الكلامية الدالة على التوجيه**: لا يعدّ التوجيه فعلًا لغويًا فحسب بل وظيفة من وظائف اللغة التي تعنى بالعلاقات الشخصية. فهناك مواضع في القرآن الكريم لا يناسبها المرونة والتساهل في الخطاب ومنها آيات التوحيد لأنّ غايتها واحدة وحقيقتها ثابتة لا تقبل التغيير وهي الإيمان بالله وحده، ومن أبرز هذه المواضع على سبيل المثال لا الحصر:

أولاً : النداء.

اهتم نحاة العرب بدراسة كلّ ما يهم المتكلم والمستمع من قصد، وغرض، وإفادة، وأثر المسافة بينهما في المعنى والعلاقة التي تجمعهما، وموضوع الكلام وأثره، والحركة الجسمية المصاحبة للحدث الكلامي، وغير ذلك من الأمور التي تتطابق إلى حدٍ بعيد مع اهتمامات الدراسات التداولية الحديثة من أجل تداول المعنى وانجاح عملية التواصل اللغوي بين متكلم الخطاب ومتلقيه[٤٣]. ويتمثل أسلوب النداء بأفعال كلامية تكليفية تتباين في قوتها الإنجازية بتباين المقام والسياق الذي ترد فيه، والغاية منها حمل المتلقي على أداء فعل ما؛ لأنّ المنادى هو العنصر الأساس في جملة النداء وهذه نقطة التقاء بين التداوليين ونحاة العرب على أنّ المنادى هو "المكون الخارجي الذي يسبق الجملة أو يليها أو يتخللها مؤشرًا بكيفية صريحة إلى أنّ الخطاب موجه إلى الشخص المحال عليه بعبارة النداء"[٤٤].

ومنه قوله تعالى [٤٥]:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ لكلّ عنصر فيها وظيفته النحوية التي يؤديها فحرف النداء(يا) مستعمل لنداء القريب والبعيد؛ لأنّ الخطاب هنا موجه إلى المؤمنين بما يُصلح أعمالهم وينوّه بشأنهم فكان النداء بـ(يا) حقيقي يمثل البعد بين المنادي والمنادى وهذا البعد اعتمده النحاة في توزيع أدوات النداء وهو ما أطلق عليه التداوليون بـ(العنصر الإشاري) ويراد به "عنصر مكان التخاطب والمسافة الفارقة بين المتكلم والمخاطب على الخصوص"[٤٦]، والمسافة محفوظة في الخطاب القرآني بوجه عام بينه سبحانه وبين من يوجه إليهم الخطاب بكلّ درجاتهم لذا اختص النداء بالحرف (يا) الذي يحفظ تلك المسافة، وكذلك لشدة ارتباطه بأفعال التكليف، فالغلبة في استعمال اسلوب النداء أن يتبع بأمر أو نهي، لأنّ النداء تنبيه للمتلقي والمنادى مُنَبّه. و(اركعوا، واسجدوا، واعبدوا، وافعلوا) هي افعال كلامية توجيهية هدفها التأثير في المتلقي بغية انجازها؛ إذ يبدأ الخطاب بأمر الذين آمنوا بالركوع.

ثانيًا : الاستفهام .

هو "ما يقتضي به قول ما" [٤٧] دال على الطلب وهو من أكثر أساليب الإنشاء الطلبي استعمالًا في الحقيقة أو على سبيل المجاز بخروجه إلى معانٍ أخرى كالتعجب والنفي والتوبيخ والاستنكار أو الاستهزاء والتهكم والتقرير والعتاب، أو التشويق والترغيب، و... إلخ بحسب السياق الذي يرد فيه زيادة على قصد المتكلم وغرضه من الخطاب .

ويعدّ الاستفهام من الأساليب التي انماز بها الخطاب القرآني من غيره كونه صادرًا من سلطة عليا هي سلطة الربّ الخالق المسيطر خطاب من أعلى إلى أدنى غايته التقرير والتذكير، كقوله تعالى [٤٨]:﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ فعل الأمر (قل) فعل كلامي تلفظي إنجازي لأنّ حقيقته هي الدعاء والحث على إنجازه متبوع بأداة الاستفهام (الهمزة) في (أرأيتم) فهو استفهام تقريري مركب إلى (إنْ) الشرطية في الآيتين؛ لأنّ الشرط مفروض فرضًا مخالفًا للواقع وعُلِمَ بأنّه قصد الاستدلال بعبرة خلق النور ولذلك فرض استمرار الليل، والمقصود ما بعده وهو قوله: (من إله غير الله يأتيكم بضياء) [٤٩]. وفي تعدية الفعل (يأتيكم) في الآيتين إلى ضمير المخاطبين إيماء إلى أنّ ايجاد الضياء وإيجاد الليل نعمة على الناس وهذا إدماج للإمتنان في الاستدلال على الانفراد بالألوهية. إذ أقامت هذه الآيات الحجة الواضحة عن فساد معتقدهم ففرع عن تلك الحجة الاستفهام الانكاري في (أفلا تسمعون، أفلا تبصرون)[٥٠] عن انتفاء سماعهم في الأولى فالقوة الإنجازية متمثلة بالإنكار ومعناه: أفلا تسمعون الكلام المشتمل على التذكير بأنّ الله هو الخالق؟ وكرر الأمر بالقول في مقام التقرير؛ لأنّ التقرير يناسبه التكرير كمقام التوبيخ والتهويل [٥١]. وتكمن جمالية الخطاب بالفعل الكلامي الإنجازي بصيغة الأمر (قل) - الذي توافرت شروط نجاح إنجازه من إفادة وقصد - المتبوع بالاستفهام التقريري والانكاري المتمثل بـ(مَنْ) و(الهمزة) التي تكررت أربع مرات في الآيتين أدت وظائف إبلاغية تواصلية أو أفعال متضمنة في القول بحسب ما يقتضيه السياق مع ما تخللهما من أفعال تقريرية (جعل، رأيتم، يأتيكم، تسكنون، تسمعون، تبصرون) بالمفهوم التداولي لأنّها تعبر عن صحة ما يتلفظ به .

والمقصود من استعمال صيغ الاستفهام (هل، والهمزة) من أجل اشراك المتلقي في الأمر ليقرر ويجيب بنفسه ولو ذكره في صيغة الخبر لكان إخبارًا من المتكلم لكن يشترك المستمع في الأمر إذ لو أجاب عن السؤال لقال: نعم أعلم له سميًا، فقد عرض الأمر بصيغة السؤال ليقرره المتكلم نفسه ويكون مشاركًا في الخطاب ويكون الاستفهام بـ(هل، والهمزة) لما يتوقع فيه الإثبات بخلاف (هل) فهي أشد قوة في الاستفهام، فقد ترمز أحيانًا إلى أن يكون الجواب نفيًا بـ(لا) [٥٢] كما مثلنا فيما سبق.

نتائج البحث

١- جميع الأفعال الكلامية التي حفلت بها آيات التوحيد تدل على سلطة الخالق التوجيهية التي مثلتها استراتيجية الخطاب التوجيهي الذي انماز بلغته الصارمة التي لا تقبل النقاش أو التملص من تنفيذ دلالته فإلى جانب تسلط حدث القصد على المواضعة، فإنّه يتسلط على الطرف الثاني في كلّ تحاور لساني، وبذلك يكتسب قانون القصد بعده التواصلي الأوفى؛ كونه معيارًا أوليًّا في استقامة جهاز التحاور.

٢- اتسمت الاستراتيجية التصريحة في هذه الآيات بوضوح التعبير وبيان المقاصد بما يضمن تحقق عملية التواصل بين أطراف الخطاب ونجاحها؛ لذا يرتبط الفعل الإنجازي عند أوستين ارتباطًا وثيقًا بمقصد المتكلم لما له من أثر مركزي فاعل في نظرية الفعل الكلامي.

٣- المقصود من استعمال صيغ الاستفهام (هل، والهمزة) من أجل اشراك المتلقي في الأمر ليقرر ويجيب بنفسه بغية تداول المعنى وانجاح عملية التواصل اللغوي بين متكلم الخطاب ومتلقيه .

٤- اهتمام النحاة العرب بدراسة كلّ ما يهم المتكلم والمستمع من قصد، وغرض، وإفادة، والعلاقة التي تجمعهما، وموضوع الكلام وأثره، والحركة الجسمية المصاحبة للحدث الكلامي بما تتطابق إلى حدٍ كبير مع اهتمامات الدراسات التداولية الحديثة .

Abstract

The deliberativeness of direct speech acts in the verses of monotheism in the Glorious Qur'an

By Sarah Kazem Abdel Reda

And Ali Khalif Hussein

This research seeks to Presentation and analysis of applied issues Speech of the Koran to The approach is the first nucleus of deliberative linguistics, And fixed axis for Most of its theories in the present era, Because it represents the basis of the communication process Because the communication process is not done by verbal acts spoken by the speaker, So that this delicate process can be established in order to achieve the objective of the behavior of these actions, And to reveal its depths in the ancient Arabic linguistic heritage And explore the investment foundations of the Arab scientists, especially Arab grammarians .

الهوامش

(١) اقتصر البحث على آيات الأفعال فقط؛ لأنّ مسعانا أن لا نشرع بذكر المسائل العقدية والأصولية التي عليها العلماء في آيات الأسماء والصفات؛ حتى لا يخرج البحث عن مساره.

(٢) ينظر الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، خالد ميلاد، المؤسسة العربية للتوزيع – تونس، الطبعة ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م: ٤٩٣ – ٤٩٤، ونظرية الفعل الكلامي بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي والإسلامي، د. هشام عبد الله خليفة ، مكتبة لبنان ناشرون _ بيروت، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان – القاهرة ، الطبعة ١ ، ٢٠٠٧م : ٤٠ – ٤٢ .

(٣) ينظر في البرجماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة دراسة دلالية ومعجم سياقي، د. علي محمود حجي الصرّاف، مكتبة الآداب – القاهرة ، الطبعة ١ ، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م: ٢٩، وما بعدها .

(٤) ينظر نظرية أفعال الكلام العامة : ١٦ – ١٧، والتداولية اليوم علم جديد في التواصل، آن روبول، وجاك موشلار، ترجمة د. سيف الدين دغفوص، ود. محمد الشيباني، مراجعة د. لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، ودار الطليعة للطباعة والنشر – بيروت ، نشر تحت إشراف جان لوي شليغل ، الطبعة ١ ، ٢٠٠٣م: ٢٧٢، وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر : ٤٣ – ٤٤ .

(٥) ينظر نظرية أفعال الكلام العامة : ٢٧ – ٢٨، ونظرية الفعل الكلامي : ٤٣ – ٤٤.

(٦) ينظر في البرجماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة: ٣٧ .

(٧) ينظر نظرية افعال الكلام العامة : ٧٩- ٨٠ .

(٨) ينظر في البرجماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة: ٣٧ .

(٩) ينظر نفسه : ١١٦ – ١٢٠، وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر : ٤٥ – ٤٦، ويمكن أن ينجز فعل رابع في الوقت ذاته هو فعل قوة الاسناد الذي يعمل على ربط الصلة بين المتكلم والمستمع.

(١٠) ينظر نظرية افعال الكلام العامة : ١١٥ - ١١٦، والتحليل اللغوي عند مدرسة اكسفورد، صلاح إسماعيل عبد الحقّ، دار التنوير – بيروت ، الطبعة ١ ، ١٩٩٣م: ١٨٤- ١٨٥، في البرجماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة: ٤١ .

(١١) ينظر التداولية من أوستين إلى غوفمان : ٥٩ .

(١٢) ينظر نظرية افعال الكلام العامة: ١٢١، في البرجماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة: ٤٣ .

(١٣) ينظر نفسه: ١٧٤ – ١٧٥، والتداولية من أوستين إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار – سوريا ، الطبعة ١ ، ٢٠٠٧م: ٦٢ .

(١٤) ينظر استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري ، دار الكتاب الجديد المتحدة – بيروت ، الطبعة ١ ، ٢٠٠٤م: ٢٢٠ .

(١٥) التوبة : ٣٠، ٣١ .

(١٦) ينظر في البرجماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة: ٦١.

(١٧) بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي، تحقيق د. محمود مطرجي ، دار الفكر – بيروت : ٥٢/٢ - ٥٣ .

(١٨) ينظر الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري (٥٣٨هـ) ، دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة ٣ ، ١٤٠٣هـ : ٢٦٤/٢.

(١٩) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، (٤٦٨هـ) ، تحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد مع الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس ، قدمه وقرظه الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي ، دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة ١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م: ٤٩٠/٢ .

(٢٠) ينظر نفسه : ٤٩٠/٢، ومفاتيح الغيب (تفسير الرازي) أو التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ) ، تحقيق محمد عبد الرحمن محمد مصطفى ، دار إحياء التراث العربي – بيروت، المطبعة البهية المصرية، الطبعة ٣ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م: ١٦/ ٣٠ .

(٢١) ينظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي (١٢٧٠هـ)، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية– بيروت، ١٤١٥هـ : ٢٧٧/٥ .

(٢٢) التحرير والتنوير(تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (١٣٩٣هـ) ، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ هـ: ١٧١/١٠.

(٢٣) البرغماتية وعلم التراكيب بالاستناد إلى أمثلة عربية ،عثمان بن طالب، الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات ، الجامعة التونسية – تونس: ١٣٨، واستراتيجيات الخطاب : ٢٢٦.

(٢٤) استراتيجيات الخطاب : ٢٢٦ .

(٢٥) ينظر الطرح التداولي لخواص تراكيب الكلام، باديس لهويمل ، جامعة محمد خيضر – بسكرة: ٩ – ١٠ .

(٢٦) ينظر آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر : ١٠٩ .

(٢٧) استراتيجيات الخطاب : ٢٣٣، وينظر نظرية أفعال الكلام العامة : ١٠٧ .

(٢٨) الأنعام : ١٠٢ .

(٢٩) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ)، تحقيق صفوان عدنان الداوودي ، دار القلم – بيروت ، الدر الشامية – دمشق ، الطبعة ١، ١٤١٢هـ: ٢٩٦، مادة (خلق) .

(٣٠) ينظر مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي أبو الحسن (٣٩٥هـ) ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الفكر ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م: ٢/ ٢١٣ .

(٣١) التحرير والتنوير : ٤١٢/٧ .

(٣٢) ينظر نظم الدر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (٨٨٥هـ) ، تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م: ٦٨٩/٢- ٦٩٠، والتحرير والتنوير: ٤١٢/٧.

(٣٣) الذاريات : ٥٦ .

(٣٤) القصص : ٨٨ .

(٣٥) ينظر استراتيجيات الخطاب : ١٣٩ .

(٣٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي (٥٤٢هـ)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة ١، ١٤٢٢ هـ : ٣٠٤/٤ .

(٣٧) ينظر اللباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (٦١٦هـ)، تحقيق د. عبد الإله النبهان ، دار الفكر – دمشق : ٣٠٠/١٥ .

(٣٨) ينظر التداولية في الدراسات النحوية، د. عبد الله جاد الكريم ، مكتبة الآداب – القاهرة ، الطبعة ١ ، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م: ١٦٧، واستراتيجيات الخطاب : ١٤٥ .

(٣٩) ينظر نظم الدرر : ٤/ ٣٧٣ .

(٤٠) ينظر في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (١٣٨٥هـ) ، دار الشروق – بيروت، القاهرة ، الطبعة ١٧، ١٤١٢ هـ: ٢٢٢١/٤ .

(٤١) ينظر نظم الدرر : ٤/ ٣٧٤ .

(٤٢) في ظلال القرآن : ٢٢٢١/٤ .

(٤٣) ينظر التداولية في الدراسات النحوية : ١٥٨ .

(٤٤) ينظر مسائل النحو العربي في قضايا نحو الخطاب الوظيفي، د. أحمد المتوكل ، دار الكتاب الجديدة المتحدة – بيروت ، ٢٠٠٩ م: ١٠٥، والتداولية في الدراسات النحوية : ١٥٥ .

(٤٥) الحج : ٧٧ .

(٤٦) مسائل النحو العربي في قضايا نحو الخطاب الوظيفي : ١١١ .

(٤٧) كتاب الحروف، أبو نصر الفارابي، حققه وقدم له وعلق عليه د. محسن مهدي ، دار المشرق – بيروت ، الطبعة ٢، ١٩٩٠م: ١٦٢.

(٤٨) القصص، من الآية ٧١، ٧٢ .

(٤٩) ينظر التحرير والتنوير : ١٦٩/٢٠ .

(٥٠) الفاء هنا سببية والهمزة للتقرير أو التوبيخ .

(٥١) ينظر التحرير والتنوير : ١٦٩/٢٠ - ١٧٠.

(٥٢) ينظر النسق القرآني دراسة أسلوبية ، د. محمد ديب الباجي ، شركة دار القلم ، ومؤسسة علوم القرآن - جدة ، الطبعة١ ،١٤٣١هـ - ٢٠١٠م : ٤٠٦ – ٤٠٧ .